١

إدراك روحانيَّة قمَّة جبل الجليد

هناك أمرٌ خطأٌ على نحوٍ بائس

يُمكن أن تكونَ الروحانيَّة المسيحيَّة، دون التكامل مع الصحَّة الوجدانيَّة، أمرًا مميتًا لك ولعلاقتك بالله، وبالناس من حولك. وأنا أعلم ذلك جيِّدًا. لقد عشتُ نصف حياتي الراشدة بهذه الطريقة، ولديَّ من الأمثلة التوضيحيَّة الشخصيَّة أكثر ممَّا أهتمُّ بأن أرويه.

والمثال التالي هو أحد الأمثلة التي أتمنَّى لو استطعتَ نسيانها.

ابنتي فيث (Faith)...أين هي؟

قابلت جون وسوزان بينما كُنت أعظ في كنيسة أخرى. لقد كانا متحمِّسَين لزيارة الكنيسة التي أرعاها، وهي كنيسة الحياة الجديدة في كوينز، نيويورك. وذات أحدٍ من الأيَّام الحارَّة الرَطبة في شهر تمُّوز/يوليو، قادا سيَّارتهما لنحو ١٤٥ كيلومترًا من كونتيكت (Connecticut)، بما في ذلك الاختناقات المروريَّة المتوقَّعة، لكي يحضرا خدماتنا الثلاث المتتالية. وما بين الخدمة الثانية والثالثة، أخذَني جون جانبًا ليقول لي إنَّهما يتمنَّيان لو يحصلان على وقتٍ يتكلَّمان فيه معي على انفراد.

كُنتُ مُنهَكًا جدًّا، لكنَّ كلَّ ما كُنتُ مهتمًّا به هو: ماذا سيظنُّ راعيهما، وهو صديق لي؟ ماذا سيقولان له إذا لم أوافق على لقائهما والحديث معهما؟ ماذا سيقولان عنِّي؟

فكذبت. وقلت: "بالتأكيد، أحبُّ أن أستَضيفَكُما على غداء متأخِّر بعد الظهر، وأنا متيقِّنٌ أنَّ جيري ستحبُّ ذلك أيضًا".

وجيري أيضًا، في إطار رغبتها أن تكون "زوجةَ صالحةً للراعي" وافقَتْ على الغداء عندما اتَّصلتُ بها، رغم أنَّها كانت أيضًا تفضِّل أن تقول "لا". ونحو الثالثة بعد الظهر وصلتُ مع جون وسوزان إلى البيت، وفي غضونِ دقائق جلسنا نحن الأربعة للأكل.

بدأ جون الحديث...وتحدَّث...تحدَّث كثيرًا. أمَّا سوزان فلم تقُلْ شيئًا.

وفي أثناء ذلك، تبادلتُ مع جيري بعضَ النظرات التي تحمل معنى. شعرنا بأنَّ علينا أن نمنحُهُما الوقت. لكنْ حتَّى متى؟

وظلَّ جون يتكلَّم ويتكلَّم...ويتكلَّم.

لم أستطع أن أوقفه؛ إذ كان يشارك بشدَّةٍ وحماسة عن الله وعن حياته وعن الفُرص الجديدة في العمل. ورُحت أتساءل بيني وبين نفسي بينما أتظاهر بالاستماع: "**يا إلهي، كم أودُّ أن أكونَ ودودًا ولطيفًا، لكنْ حتَّى متى؟**" وقد كُنت غاضبًا. ثمَّ شعرتُ بالذَّنب جرَّاء شعوري بالغضب، وكنتُ أحرص أن يكون رأي جون وسوزان فينا أنَّنا زوجان كريمان ومضيافان، لكنِّي كُنتُ أتساءل عن السبب الذي جعلَه لا يعطي زوجتَه فرصةَ أن تقول شيئًا، أو أن نقولُ نحن حتَّى أيَّ شيء.

أخيرًا، قرَّرت سوزان أن تستريح قليلًا بالذَّهاب إلى دورة المياه. واستأذن

جون ليُجري مكالمةً هاتفيَّةً سريعة. وما إن صرنا بمفردنا، تكلَّمتْ جيري بصوت خفيض ومتذمر قائلة: "بيتر. لا أكاد أصدِّق أنَّك فعلتَ هذا. لم تسنَحْ للأطفال فرصة أن يروك اليوم بتاتًا".

خفضتُ رأسي ونكَّست منكبيَّ، متمنيًّا لو يستَثيرُ مَظهَري البائسُ رحمتها. لكنَّ هذا لم يحدث.

عادت سوزان من دورة المياه وواصل جون الحديث. ولكم شعرتُ بأنِّي أكره هذه الجلسة حول مائدة المطبخ! وفجأة، وبكل براءة قال جون: "أتمنَّى ألَّا أكون قد أطلتُ الحديث". فأجبتُه مستمرًّا في الكذب بالنيابة عنَّا: "لا بتاتًا، إنَّه لشيء عظيم أن نستضيفَكما".

جلست جيري صامتةً بجواري. ولم أرد أن أنظرُ إليها.

بعد ساعة أخرى، نطقَتْ جيري، قائلة: "مضى وقتٌ لم أسمع فيه صَوت فيث". فيث هي ابنتنا التي كانت حينها في سنِّ الثالثة.

استمرَّ جون في الحديث كما لو أنَّ جيري لم تقُلْ شيئًا. فتبادلتُ مع جيري النظرات وواصلنا التظاهُرَ بالاستماع. ومن وقت إلى آخر كنا نمدُّ رقبتَينا لنحاول أن نرى ما يحدث خارج المطبخ.

أقعنت نفسي أنَّ كلَّ شيء على ما يرام. إلَّا أنَّ أعراضَ الضيقِ والتوتُّر والقلق ونفاد الصبر بدأت تظهَرُ على جيري. وأستطيع أن أستنتجَ أنَّ عقلَها كان يموجُ بالكثير من الأفكار حول فيث، وما يمكن أن يكونَ قد حدث لها.

كان البيت هادئًا جدًّا على نحوٍ لافت، واستمرَّ جون في الحديث.

أخيرًا، استأذنت جيري وقالت: "يجب أن أذهبَ لأطمئنَّ على ابنتنا". قالت ذلك بنغمة استطعتُ أن أدركَ أنَّها متضايقة جدًّا. واندفعت نازلة إلى

الطابق السفليِّ، فلم تجد فيث. ثمَّ إلى غرف النوم، ولم تجدها أيضًا. غرفة المعيشة، ولم تجدها. لم تجدها في أيِّ مكان في المنزل. فاندفعَتْ جيري مرتعبةً إلى المطبخ قائلة: "بيتر. يا إلهي! لا أستطيعَ أن أجدَ فيث في أيِّ مكان. إنَّها ليست هنا".

تملَّكنا الرعبُ عندما تلاقَتْ أعيُنُنا لجزء من الثانية. لقد فكَّرنا في الوقت نفسه في الخيار المستحيل: حوض السباحة!

رُغمَ أنَّنا كنَّا نعيش في بيت صغير شبه مستقلّ، فقد كان لدينا حوض سباحة صغير عمقه أقلَّ من متر في الفناء الخلفيِّ، وذلك في محاولةٍ منَّا لتحمُّل جوِّ نيويورك الحارِّ الرطب في الصيف. ركضنا نحو الفناء الخلفي، لنرى أنَّ أسوأ مخاوفنا قد تحقَّقت.

كانت فيث واقفة في وسط حوض السباحة وظهرها نحونا. كانت ابنتنا الصغيرة تقف عارية على أطراف أصابعها والمياه تغمرها حتى ذقنها، وتكاد تملأ فمها.

في الحال شعرتُ بأنِّي وجيري نكاد نتقدَّمُ في العُمر نحو خمس سنوات على الأقلّ. صرخت جيري: "فيث لا تتحرَّكي" وهرعت لتنتشلَها من حوض السباحة.

يبدو أنَّ فيث نزلت إلى المياه بواسطة السلَّم الموضوع دون أن تنزلق، وحافظَتْ على نفسها واقفةً على أطراف أصابعها لئلَّا تغرقَ، وظلَّتْ على تلك الحال...مَن يعلم كم من الوقت؟

فلو أنَّها انزلقت، لكنتُ أعدُّ، أنا وجيري، لدَفنِ ابنتنا الصغيرة بعدَ عدَّة ساعات. ظللتُ وزوجتي نرتجف عدَّة أيَّام، بل إنِّي أرتجفُ الآن وأنا أكتبُ هذه الكلمات.

والحقيقة المحزنة بشأن هذا الحادث هي أنَّ شيئًا لم يتغيَّر داخلنا، وكان الأمر يتطلَّبُ خمس سنوات أخرى، ومزيدًا من الألم، وبعض الأحداث الخطيرة الأخرى.

كيف استطعنا أن نكون مُهمِلين إلى ذلك الحدّ؟ إنِّي أتذكَّر هذه الحادثة بكمٍّ كبير من الحَرَج جرَّاءَ هذا القدر من عدم الأمانة وعدم النُّضج الذي تصرَّفنا به مع جون وسوزان، ومع الله، ومع أنفسنا أيضًا! لم يكن جون هو المشكلة، بل كنتُ أنا المشكلة. من الخارج بدوتُ طيِّبًا ولطيفًا وصبورًا، بينما لم أكن كذلك من الداخل. لقد كنت أريد أن أُظهِرَ صورةً لامعةً جَميلة للمسيحيِّ الصالح، حتَّى إنِّي انفصلتُ تمامًا عمَّا كان يحدث في داخلي. كان لسان حالي يقول: "**أتمنَّى أن أكونَ مسيحيًّا صالحًا بما يكفي. هل سيعجبُ هذان الزوجان بنا؟ هل سيَحسبانِنا على ما يرام؟ هل سيقدِّمُ جون عنِّي تقريرًا جيِّدًا إلى راعيه صديقي؟**".

لقد كان التظاهر أكثر أمانًا لي من الصِّدق والشفافيَّة.

وكانَتِ الحقيقةُ هي أنَّ تلمذتي وروحانيَّتي لم تتلامسا مع جروح عميقة في داخلي، ولم تتعامَلا مع أنماط الخطيَّة في حياتي، لا سيَّما تلك الأنماط القبيحة التي كانت تظهر خلف الأبواب المغلقة في بيتنا، وفي أثناء التجارب والخلافات والصراعات والنكسات.

لقد كنتُ متوقِّفًا عند مستوى غير ناضج من التطوُّر الروحيِّ والنفسيّ. ولم تؤدِّ حياتي المسيحيَّة إلى أيِّ تغيير في الأماكن العميقة من حياتي (أي السلوك الذي يخرج في المواقف الصعبة).

وبسبب ذلك، كادت ابنتي أن تموت. لقد كان هناك حقًّا شيءٌ ما خطأ على نحوٍ بائسٍ ومُرعب في روحانيَّتي، فماذا يكون؟

تاركو الكنائس

ظلَّ الباحثون يدرُسون تلك المجموعةَ التي تُعرَف بِاسْم "تاركو الكنائس"[1]- وهي مجموعة يتزايد عددها في السنوات الأخيرة. وبعضُ أولئك التاركين هُم مؤمنون حقيقيُّون، لكنَّهم صاروا مُحبَطين من الكنائس. وقد قطعَ هؤلاء الرجال والنساء عهدَ علاقةٍ قلبيًّا وحقيقيًّا بالسيِّد المسيح، لكنَّهم بدأوا يُدركون بالتدريج، وعلى نحوٍ مؤلم، أنَّ الروحانيَّة المُتاحة في الكنائس لم تقدِّم أيَّ عُمقٍ حقيقيٍّ يُغيِّرُ الحياةَ إلى صورة المسيح، سواء فيهم أم في مَن حولهم.

أين الخطأ؟ لقد كانوا تابعين مُخلِصين ليسوع المسيح، لكنَّهم كانوا يصارعون كغيرهم في زيجاتهم وطلاقهم وصداقاتهم وتربية أولادهم، وعزوبتهم وحياتهم الجنسيَّة وإدماناتهم وشعورهم بعدم الأمان، وكذلك في الرغبة في نوال قبول الآخرين، ومشاعر الفشل والاكتئاب في العمل، وأيضًا في الكنيسة والبيت. فما الخطأ في الكنيسة؟ ولماذا لم تستطع مساعدتهم؟

ويتضمَّنُ قسمٌ آخرُ من تاركي الكنائس مَن ظلُّوا في الكنائس، لكنَّهم صاروا خاملين بعد سنوات من الإحباط واليأس، وأدركوا أنَّ طريقة الأبيض والأسود التي تُقدَّم بها حياة الإيمان لا تتلائم مع خبرات حياتهم، فقرَّروا التوقُّف- على الأقلِّ داخليًّا. غير أنَّهم ظلُّوا في الكنائس من أجل أطفالهم، وبسبب عدم وجود بديل، لكنْ بصورةٍ سلبيَّة. ورُغمَ أنَّهم لا يستطيعون تشخيص المشكلة بدقَّة، فإنَّهم يعرفون أنَّ هناك شيئًا ما ليس سليمًا. هناك أمرٌ مفقود، لكنَّهم لا يعرفونه، ولا يعرفون ما يفعلونه إزاءه.

وهناك مجموعة ثالثة ممَّن قرَّروا التخلِّي عن إيمانهم تمامًا، بعد أن ملُّوا من حالة التوقُّف التي يعانونها في مسيرتهم الروحيَّة، وصاروا يشعرون بالإحباط كلَّما رأوا أنَّ المؤمنين حولهم غالبًا ما يكونون غضوبين وعنيدين ومعتَدِّين

بآرائهم ودفاعيّين ومتكبّرين ومشغولين تمامًا حتَّى إنَّه ليس لديهم وقت لمحبَّة يسوع الذي يشهدون عنه، مع أنَّ هؤلاء "يعرفون" الله، ومنخرطون في الكنيسة، ويُبدونَ حماستَهُم باستمرار. وجرَّاءَ ذلك، صارَ الإيمان عندهم أشبَه بعَناءٍ أكثر من كَونِه قيمةً في حياتهم. لذا باتَ الجلوسُ في المقاهي وقراءة الصُّحف في عطلة نهاية الأسبوع الخيارَ الأفضل بدل الذَّهاب إلى الكنيسة.

لقد مرَّ وقت في حياتي كان أكثر ما أتمنَّاه هو أن أكونَ ممَّن يتركون الكنيسة. لقد كان الألم الشديد الناتج عن أزمة كبيرة في حياتي يجعلني أتلوَّى من الغضب والخزي؛ فأنا مَن حاول باجتهاد وإخلاص أن يكونَ مسيحيًّا مُخلصًا ملتزمًا تُجاهَ خدمة الربِّ وملكوته. كيف انتهت بي كلُّ جهودي هذه إلى تلك الحالة السيِّئة التي وصلتُ إليها؟

ظلَّ الأمرُ هكذا حتَّى وصلَ الألم إلى درجة كشفتُ ما تحت سطح "المسيحيِّ الصالح"، وواجهتُ طبقاتٍ متراكمةً من حياتي الوجدانيَّة الداخليَّة التي ظلَّتْ مَدفونةً، ولم تلمسْها بتاتًا قوَّة الله المغيِّرة. لقد كُنت مشغولًا حتَّى إنَّه لم يكن لديَّ وقتٌ لما أسميتُه حينها "التحليل المَرَضيّ لأعماق نفسي"، كما أنِّي كنتُ مُنهمكًا وعلى شفير الهاوية في عمل الله، فلم يكن لديَّ وقتٌ لأحفرَ في مناطق أقلَّ وعيًا من إدراكي المباشر. لكنْ عندما تعرَّضتُ لمشكلات حقيقيَّة في حياتي، دفعني الألم لأنْ أواجهَ حقيقةَ أنَّ يسوع لم يخترق منِّي إلَّا طبقاتٍ سطحيَّة جدًّا، مع أنِّي كنتُ مسيحيًّا حقيقيًّا على مدى أكثر من عشرين سنة.

عندئذٍ اكتشفتُ الحقيقةَ الجذريَّة التي غيَّرت حياتي وزواجي وخدمتي، وفي النهاية غيَّرت الكنيسة التي كان لي امتياز أن أخدمها. لقد كانت حقيقةً بسيطةً، لكنِّي لم أدركها، ويبدو أنَّها أيضًا حقيقةٌ لا تدركُها الغالبيَّة العظمى

من التيَّار الذي أنتمي إليه؛ فأنا أومن بأنَّ هذه الحقيقة البسيطة العميقة، قادرةٌ على إحداث تغييرٍ ثوريٍّ في حياة الكثيرين ممَّن أصابهم اليأس من محاولة عيشِ إيمانهم المسيحيّ. والحقيقة هي أنَّ الصحَّة النفسيَّة، والنضجَ الروحيَّ لا يُمكن أن ينفصلا.

أن يتقدَّمَ بك العُمر دون أن تنضجَ وجدانيًّا

القليلون جدًّا هم الذين يخرجون من أُسَرهم وهم يتمتَّعون بنضج وجدانيّ. في سنواتي الأولى في الخدمة، كنتُ أومنُ بأنَّ قوَّة المسيح قادرةٌ على كسرِ أيِّ قيد أو لعنة، لذلك لم أُعر أيَّ اهتمام لطبيعة الأسرة التي نشأتُ فيها وتأثيرها فيَّ، وكيف أنَّها لا تزال تُشكِّلُ شخصيَّتي. لكنْ ألم يُعلِّم بولس في ٢كورنثوس ٥: ١٧ أنَّك عندما تصبح في المسيح (أي مؤمنًا حقيقيًّا بالمسيح)، فإنَّ الأشياء العتيقة تمضي ويصير الكُلُّ جديدًا؟ لذلك قرَّرتُ أن أُلقي بالماضي وراءَ ظهري ولا ألتفت إليه بتاتًا. لكنَّ الأزمة علَّمَتْني أن أعودَ إلى الوراء لأفهمَ هذه الأشياء العتيقة، كي تمضيَ بالفعل.

كانت أُسرتي الأميركيَّة من أصول إيطاليَّة مفكَّكةً ومشطورةً، حالُها حالُ كلِّ الأُسَر. وكان والداي طفلَين لعائلات مهاجرين ضحُّوا بأنفسهم من أجل أطفالهما الأربعة، ليستمتعَ الأطفالُ بالحلم الأميركيّ. كان والدي خبَّازًا، وكان يعمل لساعات كثيرة جدًّا، أوَّلًا في مخبز حلويات في مدينة نيويورك يملكه جدِّي، ثمَّ صار يعمل لدى موزِّع مخبوزات كبير. كان هدفه الأقصى أن يحصل أولاده على دراسة جيِّدة، ويتخرَّجوا حاملين شهاداتٍ جامعيَّة ويشقُّوا طريقًا جيِّدًا في الحياة.

كانت أمِّي تصارعُ مع اكتئاب إكلينيكيٍّ، ومع زوج لا يتمتَّع بالحضور الوجداني. وكانت قد تربَّتْ في طفولتها على يد أب مسيء، والآن هي تختنق

تحت عبء تربية أربعة أطفال بمفردها. لذلك فإنَّ حياتها الزوجيَّة تميَّزت بالحزن والوحدة، كما كانت طفولتها.

وهكذا خرجتُ أنا وإخوَتي من هذه البيئة، فكان من الطبيعيِّ أن نكونَ جائعين إلى المحبَّة والحنان والاهتمام، ومن المنطقيِّ ألَّا نتمتَّع بالنُّضج الوجدانيّ. وبعد أن تركنا البيت لنذهب إلى الجامعة، حاولنا ألَّا ننظرَ إلى الخلف، لكنَّنا لم نقدر؛ لأنَّ ذلك "الخلف" كان في دواخلنا.

كان بيتنا يبدو من الخارج على ما يرام مثل أغلب البيوت، بل كان يبدو أفضل من كثيرٍ من بيوت أصدقائي، وكانت أحوالُنا تبدو أفضل من أحوالهم. لكنَّ ذلك البيت الهشَّ الذي يكاد يكون مصنوعًا من ورق اللعب، تهاوى تمامًا عندما كنت في السادسة عشرة. لقد انتهَكَ أخي الأكبر أحد القوانين غير المكتوبة في أسرتنا، هو أنَّه لم يُطع والدي وترك الجامعة. والأسوأ من ذلك كان إعلانه أنَّ القسَّ مون وزوجتَه (المؤسِّسَين لإحدى الهرطقات) كانا هما الوالدَين الحقيقيَّين للإنسانية. لذلك كانت أسرتي تحسبُ أخي على مدى السنوات العشر التالية في عدادِ الأموات، وكان ممنوعًا من العودة إلى المنزل. لقد كان والداي يشعران بالخجل والانسحاق، فانسحبا عن الحضور في الأسرة الممتدَّة، وابتَعَدا عن الأصدقاء. وبمرور الوقت، كشفَتِ الضُّغوط الخاصَّة بترك أخي المنزل، ثقوبًا وعيوبًا بالغةً في أُسرتنا، وفَضَحَت اضطرابها، ما أدَّى بمرور الوقت إلى تفكُّكِ الأسرة وانفصال علاقاتنا.

وتطلَّبَ الأمرُ نحو عشرين عامًا لنبدأ في التعافي.

أمَّا ما كان مأساويًّا بامتياز، فهو أنَّ روحانيَّة والدي وانخراطه في الكنيسة (وقد كان هو العضو الأكثرَ حيويَّةً روحيًّا في أسرتنا) لم يكن لهما سوى تأثير

ضئيل في حياته الزوجيَّة وتربيته لأبنائه. فقد كانت طريقته، بوصفه زوجًا وأبًا، انعكاسًا لثقافته وللأسرة التي نشأ فيها أكثر ممَّا عكست إيمانه بالمسيح.

والظاهر لنا جميعًا أنَّ الأُسَرَ تختلف بعضها عن بعضٍ. لكنَّ ما تعلَّمتُه بعد أكثر من عشرين سنة من العمل عن قُرب مع الأسر المختلفة هو ما يلي: أنَّ أسرتك، هي مثل أسرتي تمامًا؛ لأنَّها تأثَّرتْ بالعصيان الذي ارتكبه والدانا الأوَّلان في سفر التكوين ٣، وبكلِّ ما تبعَ ذلك من خزي وأسرار وكذب وخيانات وفشلٍ في العلاقات، علاوةً على الإحباطات، والجوع إلى المحبَّة غير المشروطة. ويقبعُ كلُّ هذا خلف الواجهات الجميلة لكلِّ الأُسر وأكثرها احترامًا.

الإيمان بالمسيح

في سنِّ الثالثة عشرة، كنت مُحبطًا وغير متيقِّنٍ من وجود الله، فتركت الكنيسة مقتنعًا أنَّها لا تمتُّ بِصِلة إلى "الحياة الحقيقيَّة". ثمَّ قبلتُ المسيح في حياتي بدايةً في حفلٍ موسيقيٍّ مسيحيٍّ في كنيسة صغيرة، ثمَّ في حلقة درس للكتاب المقدَّس في الجامعة. كنتُ حينها في سنِّ التاسعة عشرة، وقد غمرَتْني محبَّة الله في المسيح، وبدأتُ مسيرةَ التعرُّف إلى يسوعَ الحيِّ الذي أظهر نفسه لي.

وعلى مدى السنوات السبع عشرة التالية، انغمستُ بقوَّةٍ في التيَّار الكاريزماتيِّ الذي تَعَرَّفتُه، ناهلًا كلَّ قطرة ممَّا أستطيعُ أن أحصل عليه من التلمذة والروحانيَّة المُتاحة. صلَّيتُ وقرأتُ الكتاب المقدَّس والكثير من الكتب المسيحيَّة، كما شاركتُ أيضًا في المجموعات الصغيرة، وحضرت الكنيسة بانتظام، وتعلَّمتُ عن التدريبات الروحيَّة، وخدمتُ بحماسةٍ مستخدمًا مواهبي، وكنتُ أعطي من مالي بسخاء، وشاركت إيماني أيضًا مع كلِّ من كان مستعدًّا لأنْ يسمع.

بعد إنهاء المرحلة الجامعيَّة، عملتُ معلِّمًا في مدرسة ثانويَّة مدَّة سنة، ثمَّ

التحقتُ بالعمل مدَّة ثلاث سنوات في فريق الخدمة الجامعيَّة، وقادني هذا إلى الانتظام في كلِّيَّات لاهوت مثل پرينستون (Princeton) وغوردون كونويل (Gordon-Conwell)، وأمضيتُ سنة في كوستاريكا لتعلُّم اللغة الإسپانيَّة وذلك استعدادًا لزرع كنيسة متعدِّدة الأعراق في منطقة كوينز.

وطَوال هذه السنوات السبع عشرة؛ ومعَ كَوني تابعًا أمينًا ليسوع المسيح، ظلَّتِ الجوانبُ النفسيَّة الوجدانيَّة من حياتي على حالها. وفي واقع الأمر، كان تعبير "الجوانب الوجدانيَّة لحياتي" تعبيرًا يخصُّ المشيرين المتخصِّصين، وليس الكنيسة.

تجريبُ أساليبَ مختلفة للتَّلمذة

عندما بدأتْ خدمتي القياديَّة تصل إلى مداها، بدأت زوجتي جيري تعترضُ مشيرة إلى أنَّ فيَّ وفي الكنيسة أمرًا خطأً على نحوٍ بائس. كُنت أعرف أنَّها ربَّما تكونُ على حقّ، لذلك ظللتُ أحاول أن أطبِّقَ عدَّة أساليب للتلمذة، كلٌّ منها يرَكِّز على أمرٍ مُختلف، وقد ساعَدَني ذلك نوعًا ما، وكان الحوارُ الدائر في داخلي على النحو التالي:

"المزيد من دراسة الكتاب، يا پيتر. سيُغيِّر هذا الناس. سوف تتجدِّدُ أذهانهم، ومن ثَمَّ حياتهم".

"لا! إنَّها حياة الجسد الواحد. يجب أن أجعلَ الجميعَ ينخرطون في حياة المجتمع الكنسيِّ إلى أبعاد أعمق، في المجموعات الصغيرة. سيفي هذا غالبًا بالأمر".

"تذكَّر يا پيتر أنَّ التغييرَ العميقَ يتطلَّبُ قوَّةَ الروح القدس. ولن يأتي هذا إلَّا بالصَّلاة. أمضِ وقتًا أطوَلَ في الصلاة، ورتِّبِ اجتماعات صلاة أكثر في الكنيسة؛ فالله لا يستجيب إلَّا عندما نصلِّي".

"لا! فالأمر يتعلَّقُ بالحرب الروحيَّة. السبب في أنَّ الناسَ لا يتغيَّرون حقًّا هو أنَّهم لا يقاومون القوى الشيطانيَّة التي تؤثِّر فيهم. طَبَّقِ الحَقَّ الكتابيَّ وصلِّ بسلطانِ يسوعَ المسيحِ من أجل الناس لتُطلقَهم أحرارًا من الشرِّير".

"العبادة هي الحلّ. إذا غُمِرَ الشعبُ في محضر الله في العبادة، فسيسيرُ كلُّ شيء على ما يرام".

"تذكَّر كلمات السيِّد المسيح في متَّى ٢٥: ٤٠. إنَّنا نتقابل مع المسيح عندما نعطي بسَخاء للإخوة الأصاغر، من المرضى والمجهولين والمهمَّشين والمسجونين. اجعلهم ينخرطون في خدمة الفقراء، وعندها سيتغيَّرون".

"لا يا پيتر، تحتاج لأنْ تجعل الناس يسمعون الله بصورة استثنائيَّة، وتكون لديهم بصيرة نبويَّة. عندئذ سيكسرون القيود غير المنظورة التي تقيِّدُهم".

"كفى يا پيتر. لا يفهمُ الناسُ نعمة الله في الإنجيل. إنَّ وقوفنا أمام الله مبنيٌّ على عمل المسيح بالكامل، وليس على عملنا نحن. الأمرُ مرتبطٌ ببرِّه هو لا برِّنا نحن! كرِّر هذا المفهوم عليهم كلَّ يوم، كما يقول مارتن لوثر، وسوف يتغيَّرون".

دون شكّ، هناك حقٌّ من الكتاب المقدَّس في كلِّ ما قلته آنفًا. وأنا أومن بأنَّ لكلٍّ منها مكان في مسيرتنا الروحيَّة ونموِّنا الروحيّ. وأنت أيضًا اختبرت الله وحضوره بواسطة واحد أو أكثر من هذه الأمور في أثناء مسيرتك مع المسيح. إلَّا أنَّ المشكلة هي في الآتي: مع كلِّ هذا، فإنَّك تشعر بأنَّ شيئًا ما مفقودٌ، كما شعرتُ أنا تمامًا. في الواقع، تضعُ الروحانيَّة التي تقدِّمها كلُّ أشكال التلمذة الحاليَّة طبقةً دفاعيَّةً أخرى تمنع الناس من النموِّ الوجدانيّ. ولأنَّ الناس يحصلون على خبرات روحيَّة حقيقيَّة ومفيدة في مناطق معيَّنة من حياتهم- مثل العبادة والصلاة ودراسة الكتاب المقدَّس وشركة المؤمنين- فإنَّ

هذا يجعلهم يظنُّون مخطئين أنَّهم بخير، حتَّى لو كانت علاقاتهم وحياتهم الداخليَّة في وضعٍ بائس. ويُقدِّم إليهم هذا "التقدُّم" الظاهريُّ سببًا "روحيًّا" يجعلهم لا يقومون بعمل النمو الوجدانيِّ الحقيقيّ.

وهكذا فهُم مخدوعون.

وأنا أعلَمُ ذلك جيِّدًا؛ حيث إنِّي عشتُ هكذا لسنوات عديدة في حياتي المسيحيَّة. فبسبب النموِّ الروحيِّ في نواحٍ معيَّنة من حياتي وحياة الذين حولي، أهملتُ حقيقة وجود علامات عدم النضج الوجدانيِّ في كلِّ مكانٍ من حياتي وحياتهم.

إنَّ أغلبنا، في لحظات الصدق الحقيقيِّ مع النفس سنعترفُ أنَّ هناك طبقاتٍ عميقةً تحت وَعينا السطحيِّ اليوميِّ المباشر. وكما يشير التشبيه التالي، فإنَّ ١٠٪ فقط من جبل الجليد يظهر فوق سطح الماء، ويُمكن أن يُرى. وفي هذا الجزء المرئيِّ يُمكن أن نكونَ لطفاء ومحترمين- نحضرُ الكنيسةَ ونشاركُ بانتظام في كلِّ أشكال الحياة المسيحيَّة. نستطيع في هذا الجزء السطحيِّ أن "ننظِّفَ حياتنا" تمامًا- من الكحوليَّات والمخدِّرات والألفاظ البذيئة والسلوكيَّات غير الأخلاقية بكلِّ أنواعها. ونصلِّي ونتكلَّم عن المسيح مع الآخرين.

نموذج جبل الجليد

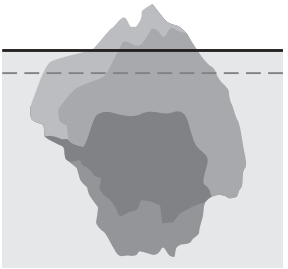

ما يقع تحت السطح

لكنَّ جذورَ كياننا الأعمق لا تزال موجودة ولم تتأثَّر.

تخاطبُ النماذج الروحيَّة الحاليَّة نسبةً ضئيلةً فقط من ذلك الجزء الذي يؤلِّف نحو ٩٠٪، والذي يقع تحت سطح الماء. والمشكلة هي أنَّ جزءًا كبيرًا (انظر الخطَّ المنقَّط) يظلُّ دون لمسةِ يسوع المسيح، إلى أن نحصلَ على ما أسمِّيه "روحانيَّة ناضجة وجدانيًّا".

عندما لفت الألم انتباهي

في النهاية، استطاعَتْ ثلاثةُ أمورٍ اجتذابي لأكونَ منفتحًا على مفهوم الروحانيَّة الناضجة وجدانيًّا. وقد جئتُ في الواقع إلى هذا المكان بعد أن قاومتُ بكلِّ شدَّةٍ مفهومَ الروحانيَّة الناضجة وجدانيًّا.

الأوَّل أنِّي لم أكن أشعرُ بالرضى وبالفرح الذي يَعِدُ بهما الكتاب المقدَّس في المسيح. لم أكن سعيدًا، بل مُحبطًا ومُجهَدًا وتَعِسًا. لقد أتى بي الربُّ إلى الحياة المسيحيَّة بناءً على وعد "نيري هيِّن وحملي خفيف" (متَّى ١١: ٣٠) وهذه دعوة للحرِّيَّة والحياة الفيَّاضة. لكنِّي لم أكن أشعر بها.

كان النير في فلسطين القديمة مصنوعًا من الخشب يدويًّا ليُناسب تمامًا أكتافَ الثيران دون أن يؤذيَها أو يجرحها. وبالطريقة نفسها، كان يسوع يؤكِّدُ أنَّ حِملَ اتِّباعِهِ هو "نير خفيف وهيِّن" لذلك يُمكن ترجمة كلامه كالتالي: "لقد صمَّمتُ حياةً مناسبةً تمامًا لك، فيها نير يُمكنُك أن تضعه على كتفك، فيكون مناسبًا لكَ تمامًا. وهو خفيف وهيِّن، وأنا أَعِدُك بذلك".

لكنَّ الواقع هو أنِّي بعد سنوات من كَوني مسيحيًّا نَشِطًا، كنتُ أشعرُ بالإجهاد وأحتاج إلى التوقُّف. وكنت أعيش أغلب حياتي في هيئة ردِّ فعل لما يفعلُه الآخرون أو ما قد يفعلونه بي أو يفكِّرون فيه بشأني. لقد كنتُ أعرف أنِّي

يجبُ أن أعيشَ لأُرضيَ الله. لكنْ أن أعيشَ كذلك كان أمرًا مختلفًا تمامًا؛ إذ لم يكُنْ نيرُ المسيح هيِّنًا لي بتاتًا.

الثاني هو أنِّي كنتُ غاضبًا ومكتئبًا ومُرَّ النفس. فقد حاولتُ على مدى خمس سنوات أنْ أقوم بأدوارِ شخصَين أو ثلاثةِ أشخاص. كانت لدينا خدمتان باللغة الإنكليزيَّة في الصباح وواحدة بالإسپانيَّة بعد الظهر، وكنتُ أعظُ في جميعها. وعندما تركَ الراعي المساعد في الخدمة الإسپانيَّة الكنيسةَ آخذًا معه مئتَين من الأفراد الذين في ذلك الاجتماع البالغ عددهم مئتين وخمسين ليبدأ بهم كنيسته، ووجدتُ نفسي أكرهُه. حاولت جاهدًا أن أغفرَ له وفشلت.

وبالتأكيد، كنتُ أختبرُ الضغطَ المتزايدَ الناتجَ من كَوني أعيش حياةً مزدوجة- أعظُ عن المحبَّة والغفران أيَّام الآحاد، وعندما أكون بمفردي في سيَّارتي أيَّام الاثنين أشتمُ وألعن. لقد بدأَتِ الهُوَّةُ ما بين معتقداتي وحياتي الحقيقيَّة تظهر بوُضوح مرعب.

الأمر الثالث، كانت جيري زوجتي تشعر بالوحدة، والإنهاك لكَونِها تحيا كما لو كانت أمًّا تعيلُ بمفردها أربع طفلاتٍ. ومن فَرْطِ إحباطها واجَهَتْني في النهاية. لقد وصلت إلى الدرجة التي جعلتها لا تستطيع أن تقبل أعذاري وتأخيري وسلوكي التهرُّبيّ، ولم يَعُدْ لديها ما تخسره.

وفي وقتٍ متأخِّرٍ في إحدى الأمسيَّاتِ، عندما كنتُ جالسًا في السَّرير أقرأ، دخلتْ جيري الغرفة وواجَهَتْني بهدوء: "پيتر، سأشعر بمزيد من السعادة لو كنتُ أعيشُ بمفردي عن أن أكونَ زوجتك. سأخرج من هذه المطحنةِ التي وضعتَني فيها. أنا أحبُّك لكنِّي أرفض أن أحيا بهذه الطريقة بعد الآن. لقد انتظرتُ وحاولتُ أن أتكلَّم معك، لكنَّك لم تسمع. أنا لا

أستطيع تغييرك؛ فهذا أمرٌ يخصُّكَ أنت. لكنِّي أريد أن أتابعَ حياتي من دونك". وقد كانت مصمِّمة.

ثمَّ أضافت: "آه، بالمناسبة. الكنيسة التي ترعاها؟ سأتركها أيضًا. قيادتك لا تستحقُّ الاتِّباع".

فهمتُ لِلَحظةٍ السبب الذي يجعلُ بعضَ الناس يقَتلونَ أحيانًا مَن يُحبُّون. لقد عرَّتني تمامًا. جزءٌ منِّي في ذلك الوقت كان يريدُ أن يخنقها، وقد شعرتُ عمومًا بخِزيٍ عميق، وكان هذا الكلام أكثر ممَّا تستطيع كرامتي احتماله.

بعد ذلك أدركتُ أنَّ ما فعلَتْه جيري معي حينها كان أعظَمَ عمل من أعمال المحبَّة عَمِلَته معي في كلِّ زواجنا. كان المعنى وراء كلِّ ما قالَتْه هو التالي: "الصحة النفسيَّة والنُّضجُ الروحيُّ أمران لا ينفصلان. من غير الممكن أن تكونَ ناضجًا روحيًّا بينما لا تزال غير ناضج نفسيًّا".

ومع أنِّي كنتُ أحبُّ يسوعَ المسيح بكلِّ إخلاص، وأومنُ بالكثير من الحقائق بشأنه، فقد كنتُ من الناحية الوجدانيَّة طفلًا رَضيعًا وغير مستعدٍّ حتَّى لأنْ أعترفَ بعدم نُضجي.

ولَمَّا قرَّرت جيري أن تترك الكنيسة، دفعتني نحو الحافة لأقرِّرَ النظرَ في ما وراء السطح لأرى أعماقَ جبلِ الجليد القابع داخلي، والذي كنتُ قبل ذلك أرتعب من مجرَّد فكرة النَّظر إليه. إنَّ لدى الألم قدرةً عجيبةً على جَعْلِنا منفتحين على الحقائق الجديدة التي لم نقوَ على مواجهتها من قبل، ومن ثمَّ نتحرَّك في اتِّجاهاتٍ لم نكن لنتحرَّكَ فيها. وأخيرًا اعترفتُ بالحقيقة المؤلمة وهي مناطق هائلة من حياتي (عُمق جبل الجليد الذي ذكرتُ) لم تلمسها نعمة المسيح بتاتًا. وفي أثناء ذلك، لم يغيِّر موقعي القياديّ، ومعرفتي للكتاب

المقدَّس، وسنوات تدريبي في كلِّيَّة اللاهوت، وخبرتي ومهاراتي- لم تغيِّر جميعها من تلك الحقيقة المُخجلة.

لقد كنتُ متورِّطًا في ما أسمِّيه الآن "الروحانيَّة غير الناضجة وجدانيًّا". ومع أنِّي كنتُ الراعيَ الأساسيَّ لكنيستي، فقد كنتُ أتمَنَّى أن أهرب أنا أيضًا، وأنضمَّ إلى قافلة تاركي الكنائس.

احترام إنسانيَّتنا الكاملة

لقد خلق الله كلًّا منَّا على صورته، بوصفه كِيانًا مُتكاملًا (تكوين ١: ٢٧). وتتضمَّنُ هذه الصورة أبعادًا جسديَّة وروحيَّة ووجدانيَّة وعقليَّة واجتماعيَّة. لنتأمل مثلًا الرسم التوضيحيَّ التالي:

المُكوِّنات المتعدِّدة لشخصيَّاتنا

ودائمًا ما يؤدِّي تجاهُلُ أيِّ جانب من هذه الجوانب إلى نتائج مدمِّرة- في علاقتنا بالله وبالآخرين وبأنفسنا. فإذا قابلنا مثلًا شخصًا لديه إعاقة ذهنيَّة أو جسديَّة، فإنَّ اضطرابَ نموِّه الذهنيِّ أو الجسديِّ سيكونان أمران واضحان تمامًا. وتمييز طفلٍ مُصابٍ بالتوحُّد وسط فناء يعجُّ بالأطفال هو أمرٌ سهلٌ؛ لأنَّنا

سنجده واقفًا بمفرده لساعات دون أن يتفاعلَ مع الأطفالِ الآخرينَ.

أمَّا تأخُّر النموِّ الوجدانيِّ فلن يكون ظاهرًا بالطريقة ذاتها، ولن نستطيعَ أن نراه عندما نقابل المرء أوَّل مرَّة. لكنْ بمرور الوقت؛ وعندما ننخرط في علاقات قريبة بهؤلاء الأشخاص، فإنَّ الحقيقة تظهر جليَّة.

لقد كنتُ أتجاهل "المُكوِّن الوجدانيَّ" في سَعيي نحو الله لمدَّة سبعَ عشرةَ سنة. كما أنَّه لم تكُن لأساليب التلمذة المتَّبعةِ في الكنائس والخدمات التي عملَتْ على تشكيلي اللغة أو اللاهوت أو التدريب الذي من شأنه أن يساعدني في هذا المجال. لا يهمُّ عدد الكتب الذي قرأتها، أو حلقات الدراسة التي حضرتها في الجوانب الأخرى من الحياة- الجسديَّة والاجتماعيَّة والفكريَّة والروحيَّة- ولا يهمُّ عدد السنوات التي مرَّت. كنت سأظلُّ رضيعًا وجدانيًّا حتَّى يواجَهَ ذلك ويجري التعاملُ معه بنعمة السيِّد المسيح. والأساسُ الروحيُّ الذي بَنَيتُ عليه حياتي (وعلَّمته للآخرين) كان متصدِّعًا، ولم يكن ممكنًا أن أخفيَ ذلك عمَّن هم حولي.

لقد تَعلمتُ أنَّ الطريقة التي يجب أن أتعاملَ بها مع الحياة هي بواسطة الحقائق أوَّلًا، ثمَّ الإيمان ثانيًا، ثمَّ المشاعر ثالثًا- بهذا الترتيب. ونتيجة لذلك، لم يكن مُهمًّا مثلًا أن أتكلَّم عن غضبي، بل كلُّ ما يَهُمُّ هو مسيرتي مع الربّ. وكنت أظنُّ أنَّ الغضبَ خطير وأنَّ عليَّ أن أكبتَه. وأغلبُ الناس هم ممَّن يبتلعون غضبَهم فيؤذون أنفسهم، أو ممَّن يخرجون غضبهم ويؤذونَ الآخرين. أمَّا النوع الثالث فيتراوح ما بين الجانبَين، وهؤلاء يبتلعون حتَّى ينفجروا، وبهذا يتسبَّبونَ في الأذى. أمَّا أنا فكنتُ حالةً تقليديَّةً ممَّن يبتلعون مشاعرهم، وكنتُ أطلبُ إلى الله أن يتخلَّص من مشاعري "السيئة" ويجعلني مثل المسيح.

لقد أدَّى فشلي في "الانتباه إلى الله"، وإلى ما يحدث داخلي إلى فقداني الكثير من العطايا والمواهب الإلهيَّة. لقد كان الله يأتي بمحبَّة ويتكلَّم إليَّ، ويحاول أن يُغيِّرَني، لكنِّي لم أكن مستمعًا جيِّدًا. لم أتوقَّع بتاتًا أن أتقابلَ مع الله بواسطة مشاعري مثل حزني واكتئابي وغضبي.

عندما اكتشفتُ أخيرًا العلاقة ما بين الصحَّة النفسيَّة والروحيَّة، بدأتْ داخلي ثورةُ تَصحيح غيَّرت كلَّ شيءٍ في حياتي، ولم يكن ممكنًا العودة إلى الوراء. كما أنَّ هذا الارتباط الثوريَّ غيَّر تمامًا مسيرتي الشخصيَّة مع المسيح، كما غيَّرَ زواجي وطريقة تربية أولادي، وفي النهاية غيَّر كنيستي أيضًا.

الحياة بطريقة الله- حياة جميلة

كانت هذه السنوات الاثنتا عشرة أفضلَ سنوات حياتي، بصفتي إنسانًا وزوجًا وأبًا وتابعًا ليسوع المسيح وقائدًا في كنيستي.[٢] لقد تعلَّمتُ أنَّنا إذا أدَّينا واجبنا الصعبَ بتَضمين النضج الوجدانيِّ والروحانيَّة، فيمكننا أن نختبرَ حينها بصورةٍ حقيقيَّة الوعودَ العظيمةَ التي لنا من الله- لحياتنا وكنائسنا ومجتمعاتنا، وهذا يجعلُ حياتَنا جميلةً.

يسجِّل الرسول بولس في غلاطِيَّة ٥: ٢٢-٢٣ ما يحدث عندما نعيش حياةً (حقيقيَّة) بطريقة الله، إذ تُثمرُ حياتُنا بعطاياه ومواهبه مثل أشجار البساتين. وفي ما يلي سأستخدم ترجمتَين من أشهر ترجمات للكتاب المقدَّس باللغة الإنجليزية (ومترجمة إلى العربيَّة هنا) لأقدِّم الطريقةَ التي يشرح بها الرسول بولس الثمر الجميل الذي يصفه في غلاطِيَّة ٥: ٢٢-٢٣:

الترجمة الدوليَّة الحديثة (NIV)	**ترجمة الرسالة** (The Message)
محبَّة	مشاعرُ الحُبِّ للآخرين
فرح	حماسة للحياة
سلام	سكينة
طول أناة (صبر)	استعدادٌ للاستمرار في فعل الأمور نفسها
لطف	شعورٌ بالتعاطُف القلبيّ
صلاح	الاقتناعُ أنَّ القداسة الجوهريَّة يمكن أن تتخلَّلَ الأشياء والأشخاص
إيمان (أمانة)	الحفاظَ على الالتزام والانتماء
وداعة	عدم الاحتياج لأن نشقَّ طريقنا بعنف في الحياة
تعفُّف (ضبط نفس)	القدرة على إدارة طاقاتنا بحكمة

يَعدُنا الله أنَّنا إذا عشنا الحياة بطريقته (حتَّى وإنْ كان ذلك يبدو غريبًا وغير طبيعيٍّ وصعب في البداية)، فإنَّ حياتنا ستكون جميلة.

توقَّفْ عن القراءة وخصِّص وقتًا لهذه القائمة. اقرأ القائمة ببطء مُصلِّيًا، ودَعْ كلَّ كلمةٍ تتخلَّلك بعُمق. اسأل نفسَك بأمانة: "إلى أيِّ حدٍّ صار هذا الثمر حقيقةً في حياتك اليوم؟" فكِّر في أسلوب حياتك في البيت والعمل والمدرسة والكنيسة. واسمح لله بأن يغمرك بمحبَّته الآن أينما كُنت. اطلب إليه أن يعملَ فيك، كي تصير ذلك الإنسان الموصوف بالصفات المذكورة آنفًا.

طريقةٌ أُخرى

أومنُ بأنَّ الجدران التي نرتطم بها في مسيرتنا مع الله هي عطايا منه. وليس من

مقاصد الله أن نكونَ من بين مَن يتركون الكنائس. لكنَّ الله يعملُ على تغيير فهمنا لمعنى تبعيَّة المسيح في القرن الحادي والعشرين، كما يعمل على توسيع ذلك الفهم، وذلك بطرقٍ أكثر جذريَّةً وعمقًا ممَّا كنَّا نظنّ. وكما كانت الحال مع إبراهيم، فإنَّ الله يأخذنا في رحلة تتضمَّنُ الكثيرَ من المنحَنَيات والمنحدراتِ التي تُحدِثُ تغييراتٍ عميقةً في حياتنا بواسطة عمل السيِّد المسيح.

والحقيقة المحزنة هي أنَّ أغلبنا لن يتقدَّم إلى الأمام إلَّا عندما يصيرُ ألم البقاء حيثُ نحن ألمًا لا يُحتمَلُ. ربَّما هذا هو موقفك الآن. تقبَّل أحوالك واحسبْها عطايا من الله، وافتح قلبك بينما تقرأ هذا الكتاب الآن كي تقابله بوسائل جديدة تمامًا.

نحن لا نستطيع أن نتغيَّر – أو، بكلمات أخرى، أن ندعوَ الله لتغييرنا– عندما لا نكون واعين، وعندما لا نرى الحقيقة.

في الفصل التالي سأفحصُ من قُربٍ أهمَّ عشرِ مظاهرَ للرُّوحانيَّة غير الصحِّيَّة وغير الناضجة وجدانيًّا، لنبدأ في إجراء التغييرات التي يقصدها الله في حياتنا.

أشكرُك يا إلهي على نعمتك ورحمتك لي.
فلَولا عملُك في حياتي لما أدركتُ حقيقةَ وُجودك، ولا احتياجي إلى عملك المغيِّر في أعماقي. أعطني يا ربُّ الشجاعةَ لأكون أمينًا وأدَعَ قوَّة الروح القدس تقتحمُ أعماقي، وتتعامَل معَ كلِّ ما هو تحت السطح في حياتي حتَّى يعيدَ يسوعُ تشكيلي بالكامل. ساعِدْني يا ربُّ أن أدركَ مدى محبَّة المسيح الشخصيَّة لي، وكم أنَّها طويلةٌ وعريضةٌ وعميقةٌ ومرتفعة.
باسم يسوع المسيح. آمين!